

بنية الفضاء المكاني ودلالاته في رواية مقامات الذاكرة المنسية لحبيب مونسي

الأستاذة: تقار فوزية

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة حمة لخضر الوادي

البريد الإلكتروني tegarfouzia@gmail.com

ملخص:

عرف المكان مع الرواية الجديدة وضعا و اعتبارا خاصا ؛ إذ أصبح خاضعا لتطور رؤية الكاتب الجمالية و المعرفية للواقع ، فتغيرت طرق بنينه في النص الروائي و تمت إعادة تشكيله و خلقه بطريقة تضفي خصوصية على الرواية لتتظهر قوة إبداعية المؤلف من خلالها عوالم تعبر عن رؤاه و تبعده عن الجاهز و المعطى و تعانق الممكن، و الغاية من هذه الدراسة هو استجلاء الدلالات الكامنة وراء توظيف هذا العنصر أدبيا و جماليا غير معزول عن سياقات التاريخ و المجتمع و الذات المبدعة في رواية مقامات الذاكرة لحبيب مونسي .

Summary

In the new novel, the place has known a special consideration. It becomes a subject to the evolution of the aesthetic and knowledgeable vision of the writer to reality. Its structure changed in the literary text and it has been restructured and created in a way that gives privacy to the novel to show the creative strength of the author to express his vision and keep him away from superficiality. The purpose of this study is to extract the hidden indications behind the use of these elements, literary and aesthetic, not isolated from the historical context, society, and the creative ego in Habib's Mounsi novel " Makamat El Thakira El Mansia".

أولا: بين الفضاء و المكان في الرواية :

لقد ظل الفضاء المكاني مجالا مفتوحا لاجتهادات و تطورات النقاد و الدارسين حيث اختلفوا في معالجتهم له كاختلافهم في تحليل ودراسة الزمان و أصبح من أهم العناصر الأساسية المكونة للنص السردي و أحد الأسس الجمالية التي تنهض عليها. فالمكان الروائي كما يسميه بعض النقاد " مجرد وعاء يحتوي الأحداث الروائية ولا عبء له إلا بكونه حاملا لتلك الأحداث ، و لا أهمية له على صعيد الكتابة الروائية خارج الرموز التي يوصف بها أو يدل عليها"¹

لقد أولى النقاد الغربيون اهتماما كبيرا لهذا الجانب بعد الحرب العالمية الثانية وأدخلوه ضمن دراساتهم النقدية تنظيراً وإجراءً، والتي لم تصل إلى بلورة نظرية محددة لهذا المصطلح " و لم يصل الأمر إلى إقامة تطورات كلية لها حد معين من الشمول و التعميق رغم محاولات يوري لوتمان الهامة التي نوه بها جميع المشتغلين بالفضاء"²

مما جعل ميران (H. Mitterand) يؤكد أنه: " لا توجد نظرية مبنية حول الفضاء الروائي، و إنما يوجد فقط طريق للبحث مرسوم بشكل حسن ، كما توجد بجانبه مسارات أخرى على شكل نقط متقطعة."³

ينطلق لوتمان في تحديده لمفهوم الفضاء من مسألة التقاطبات القائمة عادة على الثنائيات الضدية، فمفاهيم " الأعلى / الأسفل، القريب/ البعيد، المنفتح / المغلق، المحدود / اللامحدود و المنقطع / المتصل، كلها تصبح أدوات لبناء النماذج الثقافية دون أن تظهر عليها أي صفة مكانية، و يرى لوتمان أن النماذج الاجتماعية و الدينية و السياسية و الأخلاقية في عمومها تتضمن نسبا متفاوتة و صفات مكانية تارة على شكل تقابل السماء/ الأرض و تارة على نوع من التراتبية السياسية و الاجتماعية."⁴

أما جوليا كريستيفا ترى أن الفضاء الجغرافي ليس منفصلا عن دلالاته الحضارية، فهو " إن يتشكل من خلال العالم القصصي يحمل معه جميع الدلالات الملازمة له و التي تكون عادة مرتبطة بعصر من العصور حيث تسود ثقافة معينة أو رؤية خاصة للعالم و هو ما تسميه " اديولوجيا العصر" (idiologéme)، و اديولوجيم هو الطابع الثقافي العام الغالب في عصر من العصور."⁵

و يشير فسيبرجر إلى صعوبة تحليل الفضاء فيقول: " لا نعرف حاليا كيف يعمل المحيط الفضائي حيث يجري السرد و هو نفس ما ذهب إليه ميران (H. Methérand) : حيث لم يخف هذه الصعوبات الجمّة و هذا القصور الذي يشوب الدراسات التي أنجزت عن الفضاء ، فإنه يشدد على الطابع اللساني الذي يحقق من خلال تقديم الفضاء في الأعمال الحكائية ، فهو يختلف عن الفضاءات الأخرى ذات البعد البصري التي تحقق من خلال السينما و المسرح ، فالفضاء في العمل الحكائي ليس سوى مجموعة من العلاقات القائمة بين الديكور و الوسط و الأماكن و الأفعال و الفواعل."⁶

ينطلق غاستون باشلار في كتابه الذي ترجمه إلى العربية غالب هالسا بعنوان: (جماليات المكان) لتطوره لمفهوم المكان من الفلسفة الظاهرية و من أبحاث علم النفس و يربط بشكل مباشر بين المكان و الإنسان و ماله تأثير مباشر على سلوكاته معتمداً في دراسته على الثنائيات الضدية (القبو/ العلية ، البرج/ البيت ...) حيث يقول عن دراسته: " أنها تبحث عن تحديد

القيمة الإنسانية لأنواع المكان الذي يمكننا الإمساك به و الذي يمكن الدفاع عنه ضد القوى المعادية؛ أي المكان الذي نحسب (...). إن المكان الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مباليا ذا أبعاد هندسية و حسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز.⁷

فلقد ركز هذا المفكر في دراسته على الأماكن التي لها صلة مباشرة بحياة الأفراد في مراحلها المتعددة و على مستوياتهم الاجتماعية المختلفة، و هذا التنوع المكاني في النص يفرز تلك الرمزية الجمالية الفكرية و يتجاوز البنية السطحية الهندسية للمكان فيحمل قيما سوسيو نفسية و فنية و يكون الفضاء حاملا ومنتجا لها، هذا ما جعله يصف هذه الدراسة بأنها: " بحث في تحديد القيمة الإنسانية لأنواع المكان، الذي يمكننا الإمساك به و الذي يمكن الدفاع عنه (...). المكان الذي يجذب نحوه الخيال."⁸

فهو عنصر لا يكتب دلالاته من نفسه بل من تفاعله مع المكونات السردية الأخرى من أهمها الشخصية التي ترتبط به ارتباطا وثيقا، ذلك أن كل فعل تقوم به يجري في زمن و يقع في مكان، " فهو نشأ من خلال وجهات نظر متعددة لأنه يعاش على عدة مستويات: من طرف الراوي بوصفه كائنا مشخصاً و تخيلياً أساساً، و من خلال اللغة التي يستعملها، فكل لغة لها صفات خاصة لتحديد المكان (غرفة ، حي ، منزل)، ثم من طرف الشخصيات الأخرى التي يحتويها المكان و في المقام الأخير من طرف القارئ الذي يُدرج بدوره وجهة نظر غاية في الدقة."⁹

إن لفظة (Espace) قد تُرجمت تارة إلى الفضاء و تارة أخرى إلى المكان أو الحيز رغم أن الغالبية تترجح للترجمة الأولى (الفضاء)، لكنه في كل الحالات يعتبر بنية حاملة لطاقة دلالية رمزية و إيديولوجية تجعله ينتقل من المستوى الواقعي إلى مستوى تامين أفكار و ورؤى تنعكس على المنظومة الفكرية و المعرفية التي يحملها الملتقي.

فالفضاء " هو معادل لمفهوم المكان في الرواية و لا يقصد به المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي كُتبت بها الرواية، ولكن ذلك المكان الذي تصوره قصته المتخيلة."¹⁰

فمدلول هذا المصطلح معادل لمفهوم المكان في الرواية، حيث نجد الناقد المغربي حسن بحراوي وازى بينهما عندما أشار في كتابه : بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن الشخصية) أنه وقع اختياره على المكان أو الفضاء الروائي بوصفه عنصرا شكليا فاعلا في الرواية، كما أنه عنون فصله الأول من كتابه السابق بـ : بنية المكان في الرواية المغربية بدل من بنية الفضاء وفقاً للعنوان ، لأنه يتعامل مع المفهومين كمصطلح واحد.

تقول سيزا قاسم في كتابها (بناء الرواية) حول مصطلح الفضاء : " النص الروائي يُخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة و أبعاده المميزة."¹¹

أما حسن نجعي يؤيد مصطلح الفضاء و يوظفه، حيث يقول: " أنه موجود على امتداد الخط السردي ، إنه لا يغيب مطلقا حتى ولو كانت الرواية بدون أمكنة، الفضاء حاضر في اللغة في التركيب في حركية الشخصيات في الإيقاع الجمالي لبنية النص الروائي." ¹² في حين يتبنى الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض لفظة (الحيز) في كثير من كتاباته فيقول عنه: " هو مصطلحنا" ¹³ ، ويذهب إلى أكثر من ذلك إذ يقر بأن مصطلحه هو الأنسب و الأصح، فالفضاء " قاصر بالقياس إلى الحيز: لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخواء والفرغ" ¹⁴

حميد لحمداني يرى أن مصطلح الفضاء شاسع بكل أبعاده فيقول: " أن الفضاء في الرواية هو أوسع و أشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في صيرورة الحكيم، سواء التي تم تصويرها بشكل مباشر أم تلك التي تدرك بالضرورة بطريقة ضمنية مع كل حركة حكاية." ¹⁵

فالفضاء الروائي يرتبط بزمن القصة و بالحدث الروائي و بالشخصيات التخيلية فلا يتشكل المكان إلا باختراق الشخصيات له، و تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم الأبطال بها.

لذلك، اعتمد سعيد يقطين في كتابه (قال الراوي) على الترابط الوثيق بين الشخصيات و فضاءاتها ، حيث جعل كل شخصية لها بنية مكانية خاصة بها ثم قدم دراسة للبنيات الفضائية العامة التي تنفرع إلى ثلاثة أنواع : مرجعية و تخيلية و عجائبية: " بحيث يصبح بإمكان بنية الفضاء الروائي أن تكشف لنا عن الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية ، بل وقد ساهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليها." ¹⁶

المكان إذن، جزء من الفضاء فلا يمكن أن تدركه إلا في إطار تلاحمه مع عناصر أخرى مكونا بذلك الفضاء الذي يكسبه معنى الزمن ومع الشخصيات في تحركها لعدم انقطاعه من خلال حضوره في السرد، فالمكان على حد قول ميران: " هو الذي يبني الفضاء" ¹⁷ ، و هكذا يمكن له أن يوحد العناصر الروائية جميعا بما فيها المكان لتكون بنية متماسكة و متجانسة، و يبقى من العسير فصله عنها حتى تتحقق دلالاته الفنية و الأيديولوجية من خلال الفضاء الروائي.

كل هذه المعطيات النظرية يمكننا أن نجعلها في خدمة التحليل و بيان آلية تشكيل الروائي للمكان والكشف عن أبعاده النفسية و الإيديولوجية، من خلال علاقته الجدلية مع الشخصيات مؤثرا فيها و متأثرا، مما يسمح بمحاولة كشف الدلالة الشاملة للنص الروائية واستكناه رؤاها الكلية للواقع .

ثانيا / بنية الفضاء المكاني في رواية مقامات الذاكرة المنسية :

لقد استطاع حبيب موني أن يخلق فضاءً متميزاً في نصه الجديدة (مقامات الذاكرة المنسية)، استمدده من خليفته الثقافية والاجتماعية مخاطباً فينا عمق الذات، عندما يعود بنا إلى ماضٍ سحيق؛ ماضٍ جميل عامر بالحكمة و الحب تؤطره الفطرة البشرية والطبيعة البريئة ، ثم يرحل بنا إلى مستقبل مجهول تؤطره نظرة علمية تكنولوجية تحمل في ثناياها بذور خوف على مصير البشرية جمعاء تنطلق من الحاضر الأليم أين تصدمنا بالواقع الآني لهذا الإنسان.

إن التحول في الزمان يقترن بتحول مماثل في المكان ، حيث توزعت وقائع الحكيم و أحداثه في رواية حبيب موني على فضائين أساسيين: فضاء الواقع و فضاء المتخيل الذهني ، فالأول يعتبر فضاء تجربة في الزمن الحاضر، أما الثاني فهو فضاء تذكرو تخيل لزمن الماضي و المستقبل،

" فمن خلال التحول عن المكان و فيه نوع من التوازي الفضائي بين الكائن من الفضاءات و الحقيقي و المتخيل الذهني و هو ما ينتج عالماً منشوداً خارج عالم الوجود ، و من ثم فإن العجيب الذهني يقوم على كثرة تعادل العالم ، هذا العالم لم يعد يُتصور على انه كون واحد متجانس، بل على أنه أكوان عديدة متواقطة و منضدة ."¹⁸

إن هذه الثنائية التقاطبية هي التي أسهمت في خلق فضاء الرواية و سنحاول اكتشاف العناصر الأكثر تأثيراً في إيقاع وحدة السرد، حيث لا يتم استنباط المعاني و الدلالات إلا بالرجوع إلى شعرية المكان و سيميائيته. محاولين الإبحار في أفضيته الواقعية و المتخيلة المليئة بالدلالات و الإيديولوجيات.

1- التقاطبات المكانية في الرواية

إن تشكيل الأمكنة في الرواية يبدو لأول وهلة موزعة لا يضبطها ضابط روائي بين الواقع و المتخيل، و هذا يحتاج إلى إمعان النظر من المتلقي؛ لأن الروائي أحبك في نسج أمكنته لأنه انتقل من فضاء مكاني مغلق إلى فضاء مكاني مفتوح.

ومن هنا، يمكن الاستفادة من مفهوم التقاطب الذي أدرجته الشعرية الحديثة في تشكيلات المكان، فالدلالة الإيديولوجية له تبدأ من جعله يمتد في كل الاتجاهات ، و الأحداث تقع فيه على شكل مد وجزر، و اللغة الواصفة الشعرية هي الوسيلة الفنية لتجسيد جدلية دلالية المكان في كل الرواية و التي تركز على الثنائيات الآتية:

هناك
وهمية.

← هنا
← واقعية.

اختيارية	جبرية ←
واسعة	ضيقة ←
مفتوحة.	مغلقة ←

فهذه الثنائيات تفضي إلى الثنائية المؤطرة لجميع هذه الثنائيات المتفرغة، أي الفضاء المتخيل و الفضاء المعيش (المدرك و المنظور) بالإضافة إلى التمثلات الذهنية و المكان النفسي الذي ندرکه عن طريق علامات ومؤشرات مرجعية تعمل على إضاءة باقي المكونات الروائية الأخرى.¹⁹

لا مناص من الإقرار، بأن المكان في رواية حبيب مونسى يحتل موقعا هاما نظراً لحضوره المطرد في مستوى الدال و إلى وظائفه المتنوعة على مستوى الدلالة و يتجلى هذا الحضور بدءاً بالعنوان، حيث كانت العتبة النصية الأولى (العنوان) في كل مرة تنزاح نحو عنصر سردي فني ليكون هو بؤرتها الدالة التي يقوم عليها الحدث من بدايتها إلى نهايتها و تتمركز حولها الشخصيات.

2- دلالة العنوان " مقامات الذاكرة المنسية":

يعد حبيب مونسى من الروائيين الذين يراهنون في كتاباتهم السردية على نموذج طموح لإغناء التجربة العربية الجديدة، وهذا من خلال خلق نصوص تتجاوز الرتبة السردية سعياً إلى تأسيس خطاب تجريبي جديد، و قد تجلى هذا الطموح بدءاً بعبئته النصية " مقامات الذاكرة المنسية "

نلاحظ توفر المكان بصفة ضمنية في العنوان البارز طباعياً فوق واجهة الغلاف " مقامات الذاكرة" و الذي أصبح عنصراً مفتاحياً يحيل إلى رؤية الراوي و منظوره الفكري، فالكاتب اتخذ منه دلالة ميكانيكية اعتباراً من أن كلمة " مقامات " متصلة بالمقام أي المجلس.

فالمقام مكان يرتبط ببعض الطقوس الثقافية للفرد و المجتمع، فلها بعد صوفي مقدس، بالتالي يكون المكان مرتبطاً بدلالات الخشية و التبرك و بدلالات الغرابة من خلال الهالة الأسطورية التي أضحت تحيط به، فيتخيل البطل نفسه في هذه الأماكن التي يحيطها بهالة من التقديس و العظمة، لأنها مرتبطة بشخصيات عريقة و الموضوعات المتناولة فيها مرتبطة بالعلم و المعرفة و اكتشاف الحقيقة، كما أنه يفضل العزلة أثناء ممارسة طقوس الاستحضار لكي تبقى الفضاء مقدساً بعيدة عن الواقع المدنس، لذلك توزعت شخصيات الرواية في فضائين:

- مقامات واقعية و شخصياتها: الطبيب، العم حمدان، الممرضات، الطلبة.

- مقامات متخيلة وشخصياتها: جلاميش، السندباد، ابن بطوطة، ابن خلدون.

استعار الروائي هذه الدلالة لأبعاد أخرى، لكنها دلالة في آخر المطاف تلامس المعنى المركزي الذي يسعى إلى معالجته، فعلى مستوى الواقع نجد أن البطل كان في كل مرة يجالس شخصيات مختلفة سواء من داخل المستشفى أو أخرى جاءت لزيارته ، فتنوعت مجالات نقاشاتهم و أفكارهم التي كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع و أفكاره السائدة ، فكان المقام الأساسي الذي يؤطر كل أحداث الرواية هو المستشفى.

فلقد أشار الراوي في هذا المستوى إلى أفضية أخرى لكنها غير فاعلة، وإنما وردت في سياق الكلام، عبارة عن مؤشرات مرجعية تحيلنا إلى أمكنة واقعية ذات مواصفات معروفة، تمثل رموزاً لصور تاريخية ثابتة في سجل الأمة عبر ذاكرة الأماكن بعينها ، تكتنز دلالات عريقة تعتبر شواهد حقيقية صادقة عن حياة كانت تنعم بالحكمة و التطور و العلوم، تحيلنا إلى صورة الوعي القائم في المعتقد الذهني لهذه الأمة، و الذي نجده ماثلاً في مختلف هذه الرموز و الآثار المكانية، ذلك أنها تفجر التاريخ كلما استوقفت القارئ عندها.

يقدم البطل وصفا لهذه الشواهد العريقة أو المقامات المنسية (بلاد إرم ذات العماد): " و ماذا يقول العقل الحديث في خبر الله عز و جلّ عن إرم التي لم يخلق مثلها في البلاد و النفي يستغرق الاستقبال في القرآن الكريم .. إرم التي وصفها المؤرخون و جعلوا أعمدها من ذهب و أرضها من الفضة هل اختفت كليّة." ²⁰

" فذات العماد الذين كانوا يسكنون العمد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم و شدتهم و جبروتهم انعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، و جعلهم في أمن من المحذورات انبت لهم من الجنات ، و فجر لهم من العيون الجاريات و أخرج لهم من الزروع و الثمرات و قوله: " وَتَنْجُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَآرِهِينَ " ²¹ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أثراً و بطراً و عبثاً من غير حاجة إلى سكنها و كانوا حاذقين متفنين لنحتها و نقشها." ²²

هذه الأمكنة هي التي يحاول البطل أن يبني متخيله الذهني و تصوره المستقبلي عليها و التي أصبحت الآن شواهد بعد أن كانت في الماضي السحيق مقامات للحركة و العيش ، إنها مقامات منسية يقول: " إن الشواهد على هذا التنوع تصب في مجرى واحد مجرى الحقيقة الأولى .. الكعبة أول بناء و الآثار على الصحراء تنغازكا ليست عبث عابث (...) و الدوائر الحجرية ميقاة و غير." ²³

فهي أماكن تشبه إلى ما تحدث إليه في الواقع وأخرى تحدثت عنها الأسطورة والتاريخ و هي عبارة عن فضاءات تخيلها البطل كبديل عن الفضاءات الواقعية المنسية، وكأنه يحاول إحيائها من جديد في ذاكرته لتصبح فضاءات أو مقامات حية بعد أن غيبتها الذاكرة الجماعية. إن " مقامات الذاكرة المنسية" عنوان رمزي استعاري يحاول الروائي من خلاله استحضار الماضي إلى الحاضر وقراءة الحاضر في ضوء الماضي والواقع في ضوء الأسطورة والتاريخ، و يمكن للماضي السحيق أن يتكرر اليوم مروراً بالذاكرة لايقاظه ليكون في مستوى الوعي الممكن للجماعة وتوفير كل الشروط والظروف المناسبة لتحقيقه.

3- أنماط الفضاء المكاني ودلالاته في الرواية.

احتوى المكان في الرواية حيزاً كبير، حيث تنوعت الأمكنة بين المغلقة والمفتوحة، وبين الواقعية والمتخيلة والتي كان لها أثر كبير على الشخصيات بطريقة مباشرة أو غير ذلك، و الفضاء المكاني في الرواية أمكنة تتوالد و تتفرع حسب الأحداث والشخصيات، و للإحاطة بالأمكنة حسب إتساعها و انفتاحها نقسمها إلى أمكنة مغلقة و أمكنة مفتوحة كأمكنة مؤطرة لأحداث الرواية.

1.3. الفضاء المكاني المغلق:

إن الحديث عن المكان المغلق هو الحديث عن المكان الذي حددت مساحته و مكوناته فهو: "مكان محدود المساحة و يتصف بالضيق و هو فضاء طارئ و مفارق للمعتاد"²⁴، حيث يبقى الانسان في هذا المكان فترات طويلة أو قصيرة من الزمن سواء بإرادته، أو بإرادة الآخرين، لذا فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية و الجغرافية، فقد تكشف الأمكنة المغلقة عن الألفة و الأمان، أو قد تكون مصدرًا للخوف و الذعر²⁵

و هنا، يبرز الصراع الدائم بين الشخصية و المكان، خاصة إذا تعلق الأمر بالإقامة الجبرية فيه، و قد شغل المكان المغلق (المستشفى) في الرواية مساحة كبيرة لوظيفته التأطيرية التي يضطلع بها.

أ. المستشفى :

تجري أحداث الرواية في حيز مكاني واحد و هو المستشفى (مصحة الأمراض العقلية) الفضاء الواقعي و هذا يجسد محورية الفضاء، حيث ركز المؤلف على مكان واحد تدور فيه كل أحداث الرواية و مرد ذلك أن المؤلف هدف إلى إرسال خطاب محدد للقارئ من هذه الزاوية يحدد فيه الأوضاع الاجتماعية و الفكرية التي يعيشها الإنسان في الوقت الراهن. سيبقى البطل في هذا المكان لفترة غير محددة، غير اختيارية مرتبطة بحالته النفسية و الذهنية و السلوكية، فما أن ثبت جنونه بقي فيه و إن كان العكس فسيخرج إلى محيطه

الاجتماعي والأسري ، وهذا يستدعي بقاءه تحت مجهر الطبيب لمراقبة تصرفاته و سلوكاته ، كل هذا يسبب ضغطاً على الشخصية (سليم) أين يجد نفسه مسلوب الحرية ، حرية الحركة و حرية التفكير ، فالإقامة فيه لم تكن بإرادته بل بإرادة الآخرين ، فهو نموذج عن البطل المأزوم اليأس لقوله : " إنني أستغرب مقدمي إلى هذا المكان من غير طلب مني ... لو كنت أجد في نفسي ما يدعوني إلى زيارة الطبيب لأتيت به بنفسه ، وليس مقاداً كما فعل ابني اليوم."²⁶

يؤسس فضاء المستشفى بوصفه مجال حيويًا نافعًا لتطورات إيديولوجية مواقف الشخصيات التي بداخله أو خارجه ، حيث " يبرز الصراع الدائم القائم بين المكان كعنصر في وبين الإنسان الساكن فيه ، و لا يتوقف هذا الصراع إلا إذا بدأ التآلف يتضح أو يتحقق بين الإنسان و المكان الذي يقطنه."²⁷

و ضمن هذا الفضاء تجلت رؤيتان مختلفتان ، كل واحدة تحمل إيديولوجية ما بين الشخصيات الموجودة داخل هذا الفضاء أو خارجه، والتي تمثلت في سياقين:

السياق الأول: يمثل البطل الذي يحاول أن يغير الوضع الذي وقع فيه و يرفع عن نفسه تهمة الجنون ، و من ثمة تغيير الواقع المأساوي السائد في المجتمع بعد فضحه وتعريته، و يشاركه في هذه النظرة العم حمدان، فهما يحملان إيديولوجية نفعية ايجابية.

السياق الثاني: يمثل المجتمع نفسه و بعض الشخصيات المحيطة به (الطبيب ، ابنه أيمن ، المرضات ، الاصدقاء) يهتمون البطل بالجنون لأفكاره الشاذة و غير المنطقية ، فالمجتمع يرفض مثل هذه الأفكار و يرفض تغيير أوضاعهم و يفضلون السكوت عنها، فهم يحملون إيديولوجية سلبية صامتة و الحل الوحيد لأمثال سليم و العم حمدان إدخالهم مصحة الأمراض العقلية لكي لا يكونوا وباءً على المجتمع.

فالمستشفى (مصحة الأمراض العقلية) مكان مغلق و خصوصي يحتوي شخصيات من المجتمع وجدت نفسها على هامش الحياة الاجتماعية الهادرة ، فهناك سبب ظاهر أو خفي يقضي بوجود الشخصية ضمن هذه المصحة.

إنه يمكن اعتبار المستشفى من مقومات الأدب الواقعي الممعن في قضايا المجتمع و المعبر عن مشاغل الناس و آلامهم ، فهو مكان اجتماعي و ملتقى لقطاع واسع من الناس و فئات مختلفة المراكز الاجتماعية، و لعل أبرز رموز هذا المكان باعتباره مكاناً للإقامة الجبرية بأنه شديد الانغلاق ، فالبطل لا يستطيع الخروج منه إلا بعد تقرير الطبيب الذي سيثبت سلامته الذهنية و أنه ليس خطراً على الناس، كما يمكن أن تدخل إليه شخصيات من خارجه كزائرين فيمثل لهم فضاءً مفتوحاً ، قال أحد أصدقائه : " لم نكن نعلم من أمرك شيئاً إلا ما تناهى إلينا

أخيراً من أنك أدخلت المستشفى ، ولما أخبرت الجماعة قررنا زيارتك" ²⁸ ، ومن أبرز مظاهر انغلاقه:

- الفضاء يخلق للبطل ضغوطات نفسية، فهو مكان معاد لم يألفه بعد لأنه متهم فيه بالجنون يقول للطبيب: "دعني أحدثك عن علمي ساعة و قارن بين ما تجده في دفاترك وبين ما أجده في رحلاتي ... فإتهمني بالجنون وسأقبل منك ذلك (...). أنت تطلب مني أن أكون مجنوناً مثلك حتى أفهم عنك ما تقول ؟ اهتز سليم في مكانه غيضاً وقال : لماذا تصر على اتهمامي بالجنون." ²⁹
- المكان يعبر عن العجز وعدم القدرة على الفعل ، فالعقاير التي تقدم للمرضى تحد من حركة الشخصيات، وتفقدهم حيويتهم ، يقول الطبيب : " في هذه العنابر حالات تأكدنا من إصابتها ، ولولا العقاقير لأحدثت في نفسها وفي غيرها ضرراً." ³⁰ و البطل يرفض هذه الأدوية لأنه يعرف حقيقة تأثيرها على عقل الفرد .
- المكان يُفرض على المرء ارتداء لباس موحد كشارة أو دلالة على الجنون أو الانتساب لهذه المصحة فيقول البطل : " ألسنا سجناء المصحة ، وهؤلاء هم السجنانون ، إن هذه المنامة لم تكن من اختياري ، إنها من خبث بعض الأبناء حتى تقع على كتفي شارة الشذوذ." ³¹
- إن الغاية الجوهرية وراء هذه الممارسات الصارمة التي يخضع لها التزليل " إنما هي العمل على تجريده من خصوصيته التي تميزه عن المجموع وتجاهل هويته ، بحيث يفقد كل عناصر الاختلاف والتفرد ويتحول إلى مجرد نسخة مكررة تندمج ضمن مكونات الفضاء المغلق." ³²
- ومن ثمة، ينهض المستشفى فضاءً دالاً في الرواية، فهو فضاء استعادة الوقائع و الشخصيات ، وهو ذلك الفضاء الذي تحقق فيه مشروع البطل الذهني و مشروع الكتابة على الدفتر الذي يلازمه دائماً ، ليجعل منه هو الآخر فضاءً عجيباً مغلقاً لا يفتح إلا بتعويذة واحدة وهي القراءة، ففي أول لقاء بينه وبين العم حمدان قال له : " يقولون أنك قد وضعتنا كلنا في دفترك .. وإنما لا نستطيع الخروج منه أبداً إلا بالقراءة." ³³
- بدأ هذا المكان الضيق يفتح شيئاً فشيئاً ، لأن البطل تفاعل مع الشخصيات المحيطة به و تقرب منها، فأصبحت أفكاره مقبولة و مُرحب بها و بدأ يجد فهم باب التقبل و الترحاب، فتحول الفضاء من مكان معاد موحش إلى مكان أليف محبوب. لذا أصبح الجنون أمراً محبباً إليه قال للطبيب : " لماذا تُصر على اتهمامي بالجنون .. إن الذي بي نعمة وليس جنوناً." ³⁴
- يبقى المستشفى في الرواية هو الفضاء المهيمن بل محل تبئير لمجمل وقائعها وحافزا لحركة الشخصيات وأفكارها، فالفضاء في هذه الحالة يتجاوز الدلالة على المكان ليعكس أبرز إشكالات الراهن ويحمل موقف الكاتب منها تصورا وفعلا.

3-2- الفضاء المكاني المفتوح

إن الفضاء الخيالي الوهبي الذي رحل إليه البطل في حالة من حالاته ليرمز إلى العجز عن التأقلم مع الواقع المعيش وشدة معاناته، ليمارس الهروب إلى أفضية خيالية مثالية جميلة يطبق فيها أفكاره ويؤكد ذاته ويعد توازنه المفقود في الواقع.

" إن الحديث عن الأمكنة المفتوحة هو حديث عن أماكن ذات ساحات هائلة توجي بالمجهول، كالبحر و النهر أو توجي بالسلبية كالمدينة، أو حديث عن أماكن ذات مساحات متوسطة كالحيّ حيث توجي بالألفة و المحبة، أو هو الحديث عن أماكن ذات مساحات صغيرة كالسفينة و الباخرة." ³⁵

لقد مثل فضاء المتخيل الذهني الفضاء المفتوح في رواية مقامات الذاكرة المنسية لرحابته و شاعته و تنوع الأمكنة فيها، فأصبح يمثل فضاءً روائياً خاصاً في عالم الرواية و من بين هذه الأمكنة: (البحر، الصحراء، السفينة، المدن، الجزر...) و منها الواقعية و العجائبية.

أ- فضاءات مرجعية جغرافية

الرواية تزخر بفضاءات مرجعية واقعية كثيرة المندثرة منها و الباقية و التي تجلت من خلال أسمائها و صفاتها " لذلك يمكن الانطلاق من الاسم و الصفة لتحديد مرجعية هذه الفضاءات." ³⁶

لقد تمت الإشارة إلى مدن و أقاليم و بحار معروفة في رواية مقامات الذاكرة المنسية و التي تحيل إلى مساحة حقيقية في الخارطة الجغرافية في العالم مثل: الهند، البصرة، المحيط الأطلسي، فالفاعل المركزي (البطل) كان ينطلق من مكان محدد ثم يعود إليه، كان السندباد ينطلق من البصرة كمكان واقعي ثم يعود إليها يقول: " تدفع المركب في رفق نحو ما كنت أحسبه جزر الهند الشرقية، كانت الحمولة التي إكتظت بها بطن السفينة مزيجاً من الأقمشة و الزرابي الفارسية التي شحنتها من ميناء البصرة." ³⁷

يتبين أن الفضاءات المرجعية سواء من خلال أسمائها أو صفاتها الدالة عليها توظف باعتبارها فضاءات حقيقية واقعية ليوهم الروائي القارئ بواقعية الأحداث و صدقها، حيث تتخذ تلك الفضاءات بوجه عام العالم الذي تتحرك فيه الشخصيات.

ب- فضاءات عجائبية.

كان انتقال الأبطال غالباً من الأماكن المرجعية الواقعية إلى الخيالية العجائبية، وهي تلك الفضاءات التي يصعب الذهاب إلى تأكيد مرجعية محددة لها سواء من حيث اسمها الذي تتميز به أو صفاتها التي تنعت بها (...). نجدتها أقرب من وجهة محددة إلى الفضاءات المرجعية و تتصف ببعض صفاتها، لكنها غير قابلة لأن تحدد مرجعياً." ³⁸

لقد تمت الإشارة إلى بعض الأماكن السردية التي ليس لها وجود على خارطة العالم، وهي أمكنة باهتة المعالم ليس لها حدود معلومة لا توجي من خلال أسمائها أو صفاتها إلى فضاء معروف، حيث خصها الراوي بأسماء تخيلية مركبة مثل: (أرض ساحرة، واحة الأرض السابعة، وادي الزوابع...)، وهذا مقطع يوضح ذلك: "لقد عثرنا عليكما في وادي الزوابع و حملناكم معنا (...)" وفيها تكلم هذا وأشار إلى واحة الأرض السابعة.³⁹

لقد اكتنف الغموض موقع هذه الأماكن التي عمد المؤلف إلى الإيهام بوجودها الحقيقي، فهي تقع خلف البحار أو في الجزر المجهولة أو وسط الصحراء، فالجزيرة التي وصل إليها جليجامش كانت مختفية وسط البحار، بسبب ستار حاجز عجيب قال: "وقد خول لهم العلم استحداث ستار حاجز يستر الجزيرة عن أنظار الغرباء، إنك تقترّب من شواطئها فلا تشاهد سوى امتداد البحر وكأنك أمام مرآة تعكس لك الوجه المقابل للبحر"⁴⁰، فحكماؤها حاولوا حمايتها من الأفكار الغربية التي يمكن أن تشوه حياتهم التي صنعوها لقرون، فالفضاء هنا يحمل إيديولوجية واحدة كقناع سائدة في واقعهم منغلقة على نفسها، وهم يدركون جيداً أنهم إن سمحوا لتعدد الإيديولوجيات فسيتهدم عالمهم وينشطر فضاؤهم الذي يحتويهم إلى عدة فضاءات أو عدة إيديولوجيات، ومن هنا تصعب السيطرة عليه.

وهي مدن صناعية تبقى على اتصال بالعالم الأرضي بواسطة وسائل تكنولوجية متطورة، أنشأ مختلف فضاءاتها الحياتية والعلمية العقل البشري من خلال تضافر جهود مجموعة من العلماء، وهي توفر الأمن والرخاء لمجتمعها.

الملاحظ أن الراوي أفرط في استعمال المخيلة المبدعة، حيث جعل المتلقي يغوص في عالم مجهول، عالم خال من السحرة والجن والشياطين، ولكنه "عالم عجيب يسيطر عليه سحر الشبه العلمي، وتتحكم فيه عناصر العجيب من حذف المسافة واكتشاف أكثر مظاهر الفضاء بعيداً عن المؤلف."⁴¹

تمثل المدن المجهولة التي وصل إليها الأبطال، المدن العلمية النموذجية العالم الخيالي الموازي للعالم الأرضي الحقيقي عالم يسوده الرخاء والتناغم ويغيب عنه البؤس والتشاؤم، فهي المدن المثالية أو الأفلاطونية تخيلها البطل هروباً من ضيق المكان الواقعي (المستشفى) و ضغوطاته الاجتماعية.

إن المكان بهذه الدلالات الوظيفية التخيلية سواء كان مكاناً ظاهراً تتحرك فيه الشخصيات الواقعية أو مكان داخل ذهن البطل تسبح فيه شخصياته المتخيلة، فهو يعد بحق أحد أهم العناصر المشكّلة لرؤية الشخصية الرئيسية وصورتها الإيديولوجية والفكرية، ليصبح في هذه الحالة جزء منها وموطناً تنتسب إليه

مثل هذا الفضاء الهروبي (فضاء المتخيل) فضاءً رحبًا واسعًا مفتوحًا على مصرعيه ينطوي على قيم الجمال و القداسة يتحكم فيه البطل كيفما شاء. " ضمن رؤية مثالية تمد التشكيل الجديد بالحركة و الحيوية ، وترتفع به عن مادية المكان و حقيقة أنساقه الواقعية الرتيبة"⁴² ، فالمكان المثالي له أصول في ذهنية البطل ، فهي تشبه العوالم المنسية التي كانت موجودة قبل الطوفان في عهد نوح ، وإرم ذات العماد .

خاتمة ورأي:

وفي الأخير، نتبين انغلاق دائرة الفضاء على المستشفى، و بالتالي انغلاق الذات على نفسها من خلال تداعياتها و أحلامها ، فالفضاء يفتح ويعود إلى الانغلاق مرة أخرى، ففي وصفه للأماكن تحرر من التقيد ببيئة محددة أو واقع معين، وهذا يوحى بالطابع الذهني العام و البعد الإنساني الرحب، و ضمن هذا الإطار الرمزي كان الروائي يهدف إلى إقامة مقارنة بين عالمين، عالم يسوده النقاء و الصفاء و الانسجام و الجمال، و عالم تافه يفتقد لهذه الأخلاق السامية، ليجسد الحركة بين وعي قائم إلى آخر ممكن، فهذه الحركة تختزن معنى الرواية بين عالم الموجود التافه و عالم المنشود السامي.

فالبنية المكانية متداخلة فيما بينها تضيف طابع الحيوية والتنوع والترقب فضلا عما تؤسس له من قيمة فنية وجمالية في النص المونساوي، من خلال حركة المكان في أكثر من اتجاه و التي تمنحه بعدا أكثر تجريدا و أكثر غرائبية، كما انه لم يبن منعزلا بل تعالق مع المكونات السردية الأخرى حسب مقتضيات الحكى جنبا إلى جنب، ليشكل بانتظامها وائتلافها نسيجاً متماسكا جعلنا نستشف القيم الدلالية ضمن السياق الروائي .

الهوامش:

- محمد الدغمومي: الرواية المغربية و التغيير الاجتماعي ، دراسة سوسيو ثقافية، إفريقيا الشرق ، د.ط، د.ت، ص 83 . 1
 سعيد يقطين: قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1997، ص 238. 2
 3 Henri Mitterand : Le discours du roman , Paris, PUF, P 193.
 حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي(الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990، ص 34. 4
 المرجع نفسه ، ص 34. 5
 سعيد يقطين: قال الراوي، ص 238. 6
 غاستون باشلار: جماليات المكان. تر: غالب هالسا ، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1984، ص 31.
 المرجع نفسه ، ص 31. 8
 حسن بحراوي: مرجع سابق، ص 32. 9
 حميد لحمداني: بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2000، ص 54. 10

- ¹¹ سيزا قاسم : بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1984، ص 74.
- ¹² حسن نجبي: شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2000، ص 65.
- ¹³ عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية، ، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، عدد240، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998م ص 142.
- المرجع نفسه، ص 141.¹⁴
- حميد لحمداني : مرجع سابق، ص 64.¹⁵
- حسن بحراوي: مرجع سابق ، ص 30.¹⁶
- ¹⁷ Henri Mitterand : Le discours du roman. P 194.
- ¹⁸ بن جمعة بوشوشة : اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربية للطباعة والنشر، تونس، ط1، 1999، ص 543.
- شعيب حليفي : شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الحرف للنشر والتوزيع، المغرب، ط2، 2007، ص 163.¹⁹
- (، الجزائر، دط، 2004، ص 165 . graphique scan حبيب مونسى :مقامات الذاكرة المنسية ، منشورات²⁰)
سورة الشعراء الآية 149.²¹
- ²² أبو الفداء اسماعيل : تفسير القرآن العظيم ، الفكر، ج3، (قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية)، د ط، د ت. ص 342 ، ص 343.
- الرواية ، ص 91.²³
- ²⁴ فهد حسين : المكان في الرواية البحرينية ، دراسة نقدية ، فراديس للنشر والتوزيع، مملكة البحرين، ط 1، 2003، ص 209.
- ينظر :المرجع نفسه ، ص 163.²⁵
- الرواية ، ص 10.²⁶
- مهدي عبيدي:جماليات المكان في ثلاثية حنامينة (حكاية بحار – الدقل – المرفأ البعيد) ، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2011 ، ص 44 .
- الرواية ، ص 185.²⁸
- الرواية ، ص 42.²⁹
- الرواية ، ص 15.³⁰
- الرواية ، ص 160.³¹
- حسن بحراوي:مرجع سابق ، ص 56.³²
- الرواية ، ص 82.³³
- الرواية، ص 42.³⁴
- مهدي عبيدي :مرجع سابق ، ص 95.³⁵
- سعيد يقطين : مرجع سابق ، ص 144.³⁶
- الرواية ، ص 119.³⁷

سعيد يقطين : مرجع سابق ، ص 246.³⁸

الرواية ، ص 216.³⁹

الرواية ، ص 71.⁴⁰

الخامسة علاوي: العجائبية في أدب الرحلات ، منشورات جامعة منتوري قسنطينة ، ط 1 ، 2005 ، ص 84.⁴¹

عبد الله زيد صلاح: دلالة المكان في الشعر اليميني المعاصر من منظور القراءة و التأويل ، دار مجد لاوي للنشر و التوزيع⁴² ، عمان ، ط 1 ، 2014 ، 2015 ، ص 162.